

أضواء البيان

@ 542 تَزَكَّيْ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى { . .

واختلف في مرجع الضمير في زكاها ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم في { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } ، فهل يعود إلى الله تعالى ، كما في { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا } ، أم يعود على العبد . .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فمما يستدل به للقول الأول قوله تعالى : { بَلِّغْ لِلَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلِمُونَ فَتِيلًا } ، وقوله : { وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَآئِكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : (اللّٰهُمَّ أَنْتَ نَفْسِي تَقَوَّاهَا وَزَكَّاهَا ، أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا ، وَأَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا) . .

ومما استدل به للقول الثاني فقوله : { فَادِّ أَفْوَاجَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } ، وقوله : { وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } ، وقوله : { فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } ، وقوله : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّاهُ يَزَكِّي } ، وكلها كما ترى محتملة ، والإشكال فيها كالأشكال فيما قبلها . .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع في التي قبلها ، وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل في طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما في قوله تعالى المصريح بذلك { وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَآئِكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } . .

وكل النصوص التي فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان ، فهو الذي يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك المعاصي ، كما في قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) وقوله : { فَلَا تَزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ } ، وقوله : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ } ، إنما هو بمعنى المدح والثناء ، كما في قوله تعالى : { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّيْسَ بِتُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا } ، بل إن في قوله تعالى : { بَلِّغْ لِلَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلِمُونَ فَتِيلًا } ، الجمع بين الأمرين ، القدري والشرعي ، { بَلِّغْ لِلَّهِ }